

## امراة أخرى

لمحمد الحديدي

محمد الحديدي خمس روايات سابقة بالتتابع « الجدران » ( ١٩٧٢ ) و « شبان هذه الأيام » ( ١٩٧٣ ) و « شخص آخر في المرأة » ( ١٩٧٦ ) و « قبل أن يهبط الظلام » و « امرأة أخرى » ( ١٩٧٨ ) .

والحديدي يحرص في كل رواية من رواياته على مناقشة قضية من قضايا الإنسان المعاصر - كما سبق أن ذكرت - مثل حريته التي يفتقدها في رواية « الجدران » ، والفكر الذي يفتقده في « شبان هذه الأيام » ، وهويته التي يفتقدها في « شخص آخر في المرأة » . ثم - على نحو مأسوي - السعادة التي يفتقدها في « امرأة أخرى » . ومعنى هذا أن هناك صلة تربط بين روايات محمد الحديدي هي تركيزها على مناقشة قضايا الإنسان المعاصر .

« امرأة أخرى » تُروى بضمير المتكلم كمعظم روايات الحديدي . بطلها « محمد سعيد الدسوقي » يحاول أن يحقق ذاته هذه المرة عن طريق الحصول على سعادته ، كما حاول من قبل بطل الجدران - الذي لم نعرف له اسماً - أن يحقق ذاته عن طريق الحصول على حريته ، وكما حاول بطل « شخص آخر في المرأة » ، المزدوج الشخصية - الدكتور رمزي حسين ييومي أستاذ الجامعة الذي نقلوا محبة في جسد نجم الكرة لطفى مدكور على إثر حادث وقع لكل منها - حاول أن يحقق وجوده عن طريق إثبات هويته . وكان الفشل نصيب الأبطال الثلاثة حيث لم يستطع أيهم أن يحصل على ماتوهم أنه يحقق ذاته . فبطل الجدران الذي كان يحاول الحصول على حريته داخل جدران أربعة يكتشف في النهاية تناقض ما يجهد من أجل الحصول عليه ، فهو داخل الجدران أقل حرية مما كان خارجها ، فتلك هي المفارقة : إن محاولة الحصول على مزيد من الحرية ينتهي بفقدان مزيد منها . وبطل شخص آخر في المرأة يكتشف أن الموت أهون عليه من مثل هذه الحياة المزدوجة التي لا يستطيع أن يتصالح فيها باطنه ( أستاذ الجامعة ) مع

ظاهرة ( بطل الكرة ) . ولهذا فإنه لا يقاوم في النهاية ذلك القاتل الذي حاول اغتياله من قبل فلم يشم إلا جسده ، غير أنه هذه المرة رجب به طالبًا منه الإسراع لكي يتخلصه من ازدواج شخصه الذي طالما عذبه .

وبطل روايتنا « امرأة أخرى » لم يكن مصيره يختلف كثيرًا عن مصير سلفيه . إنه يحكى قصته وهو ملقى على الفراش كالبعغل الناقق - على حدّ تعبيره - ( محمد الحديدي ، امرأة أخرى ، كتاب اليوم ، مؤسسة أخبار اليوم ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ١٠٩ ) . وهو يعلن في ختام اعترافاته قائلاً : في حالات كثيرة أشعر بالأسف لأن هناك أملاً فيها أريده ، نعم ، بالضبط ، أحياناً يسرفني أن أجد أنه ليس هناك أمل ، فأرتاح ، أرتاح من المحاولة الشاقة وفي ذات الوقت لا أتهم نفسي بالتقصير في حق نفسي ، كأن تتقدم لوظيفة ثم يتضح أنك غير مستوف للشروط ، فيسرك ذلك لأنه سيوفر عليك عناء المنافسة والسعي ومعاونة الفشل في النهاية . صحيح أنك كنت تستطيع من البداية أن تتجاهل الإعلان إلا أن ضميرك سيظل يؤذيك لأنك لم تحاول ، ولكن عندما تكتشف أن شروط السن وستة التخرج والتقدير ... الخ لا تنطبق عليك ، فإنك تستطيع أن تقف أمام المرأة في وقاحة ، وتصيح بالمغفل الذي ينظر إليك بكل ما في الدنيا من غيظ وحقد ، ماذا تريدني أن أفعل ؟ لست أنا الذي وضعت هذه الشروط ( المرجع السابق ، ص ١٥٣ ) يقصد شروط الوجود في هذا المجتمع عامة وشروط الوجود في الحياة بوجه أعم .

وتنتهي روايتنا بقرار البطل أن يهرب ، بعد أن انطلق إلى بيت جنان ( المرأة الأخرى في حياته ) حيث ودّعها صامتًا « ولم أحاول بعد ذلك أن أقرب منها . وعندما جاءوا بي إلى هنا بعد ذلك بسنة واحدة ، أحسست أنهم أنقذوني من العالم الذي يحيط بهذا المستشفى الكئيب » . وليس لفشل أبطال روايات الحديدي إلا دلالة واحدة هو وجود خلل في درجة التماسك الاجتماعي يؤدي إلى تمزق الطرفين : الفرد والمجتمع ، والاحتجاج على تعذر التصالح بينهما . فما يعتقد الفرد أنه حريته يعتقد الآخرون أنه اعتداء على حريتهم ، والعكس ، فإن ما يراه الآخرون حريتهم يراه الفرد اعتداءً على حريته ( الجدران ) . والأمر نفسه عندما يصرّ الآخرون على التعامل مع ظاهر الفرد بينما يصرّ الفرد أن يتعاملوا مع حقيقته وألا يؤخذوا بالظاهر ( شخص آخر في المرأة ) . كذلك يتخبط بطل روايتنا ( امرأة رجل آخر ) عندما يقوم بسلسلة محاولاته - مرة بعد أخرى - وتنويعات مختلفة للحصول على سعادته ، فيكتشف في النهاية أنها

تعارض مع سعادة الآخرين ، وكأنما لا سبيل إلى الوصول إلى تلك المحاولة التي تجعل من سعادة الفرد سعادة الآخرين - أو المجتمع ، ومن سعادة الآخرين أو المجتمع سعادة للفرد أو لأفراده . ولا شك أنها علامة من علامات التماسك والنضج الاجتماعي أن تتقارب - ولا أقول تتوحد - مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة بحيث يصبح ازدهار الواحد معناه ازدهار الآخر وليس على حسابه .

في مراهقته المبكرة نجد أن بطلنا أحب الصبية « تيسير » التي أقبلت مع أسرتها ذات صيف لقضاء أجازتها في منزل مجاور لمنزل بطلنا . ورغم أن تيسير رحلت مع أسرتها ثم ماتت فيما بعد ، إلا أنها أصبحت جزءاً من شخصيته بل من وجوده . فقد ظلّ كلما أغمض عينيه لا يرى سوى صورة واحدة هي صورة تيسير وهي ترمقه بنظراتها الثابتة الطويلة من وراء الستار الشفاف الذي يغطي نافذتها ( المرجع السابق ، ص ١٩ ) .

ولهذا عندما التحق بالمدرسة الثانوية في نهاية ذلك الصيف وسمعهم ينادون على زميل جديد اسمه تيسير ، قرر التعرف به ومصادقته - وهكذا كان حبه الأول طريقه إلى صداقته الأولى : إن منظر تيسير وهو جالس فوق أرض الحديقة ، يضحك ثم يضحك ، تماماً كما منظر تيسير وهي ترمقني من خلال الستار الشفاف الذي يغطي النافذة . لا يمكنني أن أغمض عيني دون أن أراه . كانت النافذة تجرّبني مع الحب . والحديقة تجرّبني مع الصداقة ( ص ٣٠ ) .

ولقد اكتشف أن الصبي تيسير من فئة اجتماعية أعلى بكثير من فئته التي ينتمي إليها . ولكن بقدر تعارض هاتين الفئتين بقدر ما كان هناك نوع من التكامل بينهما ، على الأقل من جانب محمد سعيد الدسوقي الذي يشعر بهذين الإحساسين المتعارضين : غربته عن ذلك المستوى الاجتماعي الذي ينتمي إليه تيسير وحاجته إليه في الوقت نفسه ( ص ٢٥ ) . والفقرة التالية توضح ذلك ، « والأسرة هي الأب والأم وتيسير ، وقد دعوني إلى الغداء معهم ، وكنت طول الوقت مضطرباً لا أدري ما أفعل ، وكأني نزلت على أرض المريح وتعرفت إلى أسرة من ساكنيه . أتقذف تيسير بأن دعاني إلى ركوب دراجته من طراز رالي . نزلنا إلى الطريق وأخذ أحدهما يركب والثاني يجرى خلفه . ثم جلسنا على الحشائش نلتقط أنفاسنا » ( ص ٢٥ ) . وفيما بعد سيكون والد تيسير هو الوسيلة التي بها يلتحق فؤاد أخو بطلنا بالكلية الحربية . كما أن تيسير هو الذي سيقود بطلنا إلى تطورات أبعد من مجرد هذا الحب البريء الرومانسي الذي عرض له في مراهقته المبكرة . وهي خطوات ما كان يمكن لمحمد سعيد الدسوقي أن يجرؤ على خطوها

بمفرده - حتى حين يكتشف بطلنا أن ما معه من نقود لا يكفي لدفع فاتورة حساب جروني وهو جالس مع سميرة - التي تعرّف عليها عن طريق تيسير - فإنه يتصل تليفونيًّا به لكي يضيف الفاتورة على حسابه .

وهكذا توثقت العلاقة بين سعيد الدسوقي وتيسير الصبي . وكان تيسير هو الذي فاتح بطلنا في موضوع الحب ، فقد كان تيسير بدوره يمر بتجربة حب تشبه تلك التي مر بها محمد الدسوقي .

وبانتهاء تجربة الحب الأول ، جاءت تجربة الجنس . ومع تجربة الجنس ظهرت في حياة بطلنا تجربته مع الشعر ، كأنما ليتحقق لون من التوازن بين الحس والعاطفة في حياته . وسيظل هذا الطريق المزدوج المتعارض المتكامل هو محاولة البطل أن يقطعه في سبيل أن يحقق - عبثًا - سعادته أو وجوده . ستجد هذا في ازدواجية الحلم والواقع ، والماضي والحاضر ، « تيسير » الطفولة و « جنان » الرجولة . وهكذا التحق محمد سعيد الدسوقي بالقسم الأدبي في السنة التوجيهية كما كانت تُلقَّب في ذلك الوقت ، والتحق بعد ذلك بكلية الآداب . بينما التحق صديقه تيسير بالقسم العلمي ، وبعد ذلك بكلية الطب . وهكذا تظلّ العلاقة بين الصديقين محمد سعيد الدسوقي وتيسير سعيد عزت لا على مسافة طبقية فقط ولكن على مسافة مزاجية أيضًا ، ومع ذلك فهي مسافة تُحدد شخصية كلٍّ منها دون أن تفصل بينهما . ولم تكن تجربة الجنس في حياة محمد سعيد الدسوقي بأبجح كثيرًا من تجربة حبه الصياني . كانت تجربته الأولى مع الخادمة سعدية مجرد قبلة اقترنت فيها السعادة بالقرف . وهي تجربة ما لبثت أن افتضحت مما ترتب عليها إبعاد سعدية إلى البلد ( القرية ) والشعور بالحرمان الذي ترتب عليه أن يكون عنوان القصائد « أشجان » « تسهيد » « لوعة » وقوافيها تنتهي بكلمات مثل « الهموم » « لايدوم » ، « لانديم » ، مما يوضح كيف يتكامل الشعر والجنس وإن بدا كل منهما معارضًا للآخر .

ولئن كان الشعر هنا نتيجة الحرمان من الجنس ، فقد كان حلم يقطه البطل أن يكون الشعر وسيلته إلى إشباع الجنس : لا بد أن أصبح شاعرًا عظيمًا . أن أتخذ مما أنا فيه من شقاء مادةً لقصائد تفتت قلوب الناس وتجعل دواويني كالماء والهواء وتوقع كل النساء في غرامى . لا بد أن أصبح « على محمود طه » وأركب الجندول ويتغنى بشعري عبد الوهاب وأم كلثوم ، وتصحو

الحسنات من النوم لتمتد كل منهن يدها إلى التليفون الأبيض المجاور للسرير ، وتطلبني لتسألني عن ليالى كليوباترا . ( ص ٤٣ - ٤٤ ) .

وتلت ذلك محاولة مع وقف التنفيذ من جانب شخص في الستين أو تجاوزها تركت في نفسه نفس الشعور المتناقض الذى تركته محاولته مع سعدية أو بتعبيره عن هذه التجربة : مزيجاً من الذعر والرغبة فى التجاوب ( ص ٣٩ ) .

أما تجربته الثالثة والرابعة فكانت محاولات مع عاهرات وبصحبة صديقه تيسير . ولقد أدرك بطلنا أن الجنس هنا تجارة كأى تجارة أخرى ، حتى أنه كان يُظن من مظهر تلك البيوت فى أول الأمر - ولعدم خبرته - أنها توكيلات تجارية وأن السيدات الجالسات أمامها هن زوجات أصحاب هذه التوكيلات أو لعلهن موظفات بها . وعندما دخل وجد أن كل شيء يبدو عادياً تماماً كما لو كانت الفتاة - وكانت صغيرة السن نوعاً ما - حكيمة أشعة مثلاً . ولهذا ظلّ فيما بعد كلما دخل على مدير أو رئيس أو شخص كبير فى مكتبه تذكر تلك المرأة . لماذا ؟ « لأن تيسير خرج وأنا دخلت وهى باقية فى « مكان عملها » تماماً كما يجلس أمام مكتبه ، ويخرج واحد من عنده ويدخل من يليه من الجالسين فى قاعة الانتظار . ( ص ٥٤ ) .

وكما انتهت محاولاته مع الجنس بهذا الإحباط انتهت أيضاً محاولاته مع الشعر ، ومع إعداده رسالة الدكتوراه . وكان يبرر فشله بقوله : لم يوجد بعد الأستاذ الذى يتمتع بالذكاء الكافى لاكتشاف موهبتي ، تماماً كرؤساء تحرير الصحف الأغبياء الذين لا ينشرون القصائد التى أرسلها إليهم . ( ص ٩٠ ) .

بعد تجربته مع الحب والجنس كانت تجربته التى كانوا يطلقون عليها فى ذلك الوقت « المشى مع البنات » فقد تعرّف عن طريق تيسير على فتاة سمراء تُدعى سميرة ، اغتصب منها قبلةً فى أحد شوارع المعادى المظلمة وتصنعت الغضب ثم اتضح أنها متزوجة ثلاث مرات فى خمس سنوات .

وأخيراً تنتهى محاولاته مع الجنس بزواجه - وقد اتضح أن الموقف لم يكن يختلف عن موقفه مع العاهرات ، فقد بدأ الحديث عن المهر والشبكة ( ص ١٠٠ ) . فهنا وهناك تجارة . وقد انتهت تجربة زواجه كما انتهت كل تجاربه السابقة مع الحب والجنس . إذ اكتشف فى النهاية أنه يعدو وراء سراب . كانت تجربة كلها شك وغيره من جانبه حتى مما يُحتمل أن يكون قد حدث فى ماضى زوجته قبل زواجها منه ، ووصل الأمر إلى حد ضربها .

ولأن الزواج علاقة علنية وليست مثل العلاقات الأخرى ، فقد تعددت في الرواية على مستويات مختلفة ، وكانت النتيجة واحدة : أخته إنصاف وزوجها وصلت علاقتها إلى حدّ الطلاق ولو أنه ردها مرةً أخرى . وتيسير فقدته زوجته جنان بسبب إدمانه شرب الخمر حتى الموت .

وأخيراً يتوهم أن سعادته لن تتحقق إلا مع حبه المفقود : جنان التي اكتشف أنها لم تكن إلا تيسير طفولته . وعندما انفرد بها وحاول أن يقبلها وقف الآخرون دون حصوله على ما توهم أنها لحظة سعادته القصوى ، اعترضوا طريقه بالعصى والسباب ، حتى أفلت منهم بأعجوبة ، وهو يتوقع أن يستوقفه أى عابر ثم يمسك بخناقه ويجذبه إلى الطريق ليلتف الناس حوله ويوسعوه ضرماً بقباقيبهم أو يرحموه بالحجارة .

ما أوسع الهوة بين الفرد ومجتمعه ، بين الأنا والهـم ( الآخريـن )

وأخيراً فإن محمد الحديدى ما يزال حريصاً على أن يجذب قارئه بعنصر تشويق تتسم به معظم رواياته هو إضفاء لمسة غموض على بعض شخصياته أو ما يتكرر من أحداث على نحو ما نجد بالنسبة لبطل الجدران والصدى العجوز والشبان الأربعة المجهولين الذين يطوفون بسياراتهم من حين لآخر . ويرجع غموض هذه الشخصيات إلى تأرجحها بين الواقع والرمز .

نفس الطريقة في رواية « شخص آخر في المرآة » ، فهناك التليفون نسمع رنينه من حين لآخر حيثما وجد البطل وعندما نرفع الساعة لا نسمع أحداً ، كذلك الشبح الذى كان يبدو ثم يختفى قبل أن يمكثنا المؤلف من معرفة حقيقته ، وما إذا كان حتى إنساناً أو حيواناً . ثم يتضح لنا أن الأول لم يكن إلا الجراح الذى أجرى العملية ليزرع مخ الأستاذ الجامعى فى جسد الشاب الرياضى ليتكون منها بطل قصتنا ، وأنه كان يتلهف على معرفة نتيجة عملياته ، أما لماذا لم يُرد أن يفصح عن شخصيته فيبدو أن حرص المؤلف على وجود عنصر غامض فى روايته كان سبباً أقوى من المبررات التى نحاول أن نستشفها لعدم إفصاح الطبيب الجراح عن نفسه . أما الشبح فلم يكن إلا زوج السيدة التى تتعلق بالبطل وكانت على يديه - لهذا السبب - نهاية البطل . وحرص الزوج القاتل هنا على إخفاء شخصه أكثر تبريراً من حرص الطبيب الجراح على هذا الإخفاء . وأكثر من هذا وذلك معاً حرص المؤلف على إيجاد عنصر تشويق وجذب للقارئ . أما فى روايتنا فإن عنصرى الغموض والتشويق يأتيان من هذا الخلط المتصل بين تيسير الصبية التى أحبها البطل فى صباه وجنان زوجة صديقه تيسير ، والتى أحبها لتشابه شخصيتها مع

شخصية أول حب له . فزاه يقول عن جنان : كانت هي واقفة عند الباب ، هي تيسير الصغيرة وهي ترمقني بنظرها الطويلة من وراء الستار الذي يغطي النافذة . ( ص ١٢٨ ) .  
وعندما كان ذات مرة برفقة جنان نسعه يقول : تذكرت الحلم فتركتها تتعد وأردت أن أناديها . ولكن ، هل أصبح بها « تيسير » كما في الحلم ؟ مجرد الفكرة جعلتني أقشعر ( ص ١٥٢ ) .

فهذه الازدواجية بين الحلم والواقع ، بين تيسير حبيبة الطفولة وجنان حبيبة الرجولة ، هي التي أضفت على العمل الفني غموضه ووهبته عنصر التشويق .